كان يتجنّب الأرجل الكثيرة التي تضرب الرصيف وتمضي، دعسة واحدة وينتهي. وزيادة في الحذر توقّف حين لمح شقاً في جدار، ثم اندفع إليه وكمن فيه مراقباً حركة الأرجل السريعة التي تذهب في اتجاهين حتى هدأتْ ثم توقّفتْ نهائياً.

كان الرصيف خالياً آخر الليل فخرج مطمئناً، وزحف ببطء على الرصيف حتى وصل إلى بالوعة مفتوحة. ودون تردّد هبط فيها بعد أن أعياه التعب والزحف، غير عابئ بالرائحة الكريهة والظلام الحالك. شعر بأمان تامّ فراح يتأمّل دوائر الظلمة المتكاثفة من حوله ويعصر بطنه عصراً يغالب به الوخز الدامي، منتظراً طلوع الصباح بفارغ الصبر.

وحين أشرقت الشمس تأهب للخروج بحثاً عن طعام، وكانت الحركة قد عادت إلى الرصيف الميت، ومرّ عمال البلدية في أول الصباح يلتقطون النفايات ويبيدون الحشرات. فداهمته أبخرة داكنة اقتحمت عليه البالوعة وسدّت أمامه المنافذ فلم يستطع الخروج. وسرعان ما ملأ البخار السامّ جوفهُ فسقط ميتاً في القاع، وحملته المياه في البالوعة مع أشياء أخرى إلى البحر الكبير حيث التهمته سمكة إفطاراً لها.

هذا ما زعموه عن ناحل بن راجل العاري الملقّب بأبي جائع المطحون، إذ كان يمشي هائماً ذات مساء فداعبته نسمةٌ طائشة، لكنهم لم يزعموا أنّ أبا جائع صار صرصوراً، كما لم يخبروا عن مسحوقة وأبنائها شيئاً.

سحابة صيف

محمد المر

دخل جمال إلى حجرة أخته حصّة في مستشفى الولادة. فشاهدها مستلقيةً على السرير، وعلى شمالها جلستْ أمه وأخته الكبرى. صاحت لدى رؤيته:

ـ جمال، أخي، حبيبي.

تقدّم جمال ووضع باقة الزهر الكبيرة التي يحملها بالقرب من النافذة، وقبّل أخته على رأسها وجبهتها. كان لونها شاحباً وظهرتْ علاماتٌ سوداء تحت عينيها. قال بهدوء:

ـ ألف مبروك يا حبيبتي، أخبروني أنه ولد.

قالت بامتنان:

ـ شكراً يا أخي. ما أجمل الزهور التي أحضرتها! أنت كلك ذوق وأدب وإحساس، لو سمحوا بزواج الأخوة لتزوّجتك، فأنت رجل كامل وعظيم.

ضحك وقال:

ـ ملوك الفراعنة كانوا يتزوّجون أخواتهم.

قالت والدتهما بحنق ساخر:

ـ لا يوجد فرعون في هذه الدنيا إلا خالد، الزوج الذي ابتليتْ به هذه المسكينة.

قالت حصّة بخليط من الغضب والحزن:

ـ تصوّر يا جمال، لم يأت خالد ليطمئنّ على ولادتي. كل النساء اللواتي ولدن معي في الليلة الماضية كان معهنّ أزواجهنّ، يتعاطفون معهنّ، ويشدّون من أزرهنّ، ويرافقونهنّ إلى حجرة الوضع، ويحملون أحذيتهنّ في أكياس الورق بعد أن يجلسن على الكرسي المتحرّك الذي يأخذهنّ إلى حجرة الوضع. بعد ذلك يبقون في قلق وتوتّر أعصابٍ ودعاءٍ وضراعة، وعندما يُبَشَّرون بالولادة لا تكاد دنيا تسعهم من الفرحة، فيوزّعون النقود على الممرّضات وعاملات النظافة في المستشفى، وعندما تُحضر الممرضاتُ المولودَ فإنّ والده يقوم بالأذان في أذنه، ويصحبه وأمّهُ إلى حجرتها ويطمئنّ عليها ثم ينصرف. تصوَّرْ يا جمال لم يؤذّن أحدٌ في أذن ولدي!.

قال جمال وهو يحاول تخفيف التوتّر:

ـ لا عليكما، أنا سوف أؤذن في أذنه، أين هو؟

قالت حصّة بكآبة:

ـ سَيُحْضرونه بعد قليل. أنا أعرف أنّ خالداً لا يحبّني ولا يطيق العيش معي. ولكنّ ابنه الأول والوحيد، كيف يتجاهله بهذه الطريقة القاسية؟ ألا توجد في قلبه ذَرّةٌ من العطف والحنان؟!.

ردّ جمال مدافعاً:

ـ مَنْ قال إنّ خالداً لا يحبك؟ إنك تتخيّلين أشياء لا وجود لها. ثم هل أَخْبره أحد في الليلة الماضية بموضوع الولادة؟

انبرت الأم للكلام وقالت بغضب محتدم:

ـ ما هذا الكلام الفارغ يا جمال؟ إنه يعرف أنّ هذه الأيام هي نهاية الشهر الأخير لحمل زوجته، وعلى الرغم من ذلك فهو مقيم منذ شهر كامل مع والدته في أبو ظبي ينعم بالهدوء وراحة البال.

قال جمال موضحاً:

ـ والدته مريضة وتحتاج إلى بقائه إلى جانبها.

اشتركت الأختُ في النقاش:

ـ والدته لها ستّة أولاد وأربع بنات ولا تحتاج إليه.

قال جمال:

ـ ولكنه ولدها الأكبر.

قالت حصّة بأسى واضح:

ـ كيف تنحاز له يا جمال ضد أختك؟ إنه إنسان أنانيّ متكبّر متغطرس فاقد لكل إحساس وشعور طيّب. شهر كامل في أبو ظبي ولم يتصل بي إلا مرتين لكي يعنّفني ويهينني ويذلّني.

قال جمال ليوازن القضيّة:

ـ يا حبيبتي، أنت كنت حساسة جداً في فترة الحمل وتتضايقين كثيراً، وربما أهملتِ زوجك، فقسا عليك قليلاً.

تحاملتْ حصّة على نفسها واعتدلتْ في جلستها وانهمرت الكلمات من فمها كالسيل الجارف:

ـ أنا أهملتُ زوجي؟! سنتين وأنا أخدمه بعينيّ، كلّ صباح أقدّم له فُوَط الحمّام كالخادمة، أطبخ له إفطاراً دسماً شهيّاً كاملاً لا يأكل إلا ربعه، أُعدّ له ملابسَ في غاية النظافة، غترته مكوية، كناديره مكويّة، حتى إزاراته مكويّة، لا يخرج إلى مكتبه إلا وقد عطّرته وبخّرته وكأنه عريس في ليلة زفافه...

انضمّت الأم إليها:

ـ أنت كاملة والكامل اللّه يا حبيبتي، إنه لا يستأهل ظفرك.

واصلت حصّة كلامها المهتاج:

ـ حتى أغطية الفراش أبخّرها وأعطّرها، لم يذكر أكلة اشتهاها إلا وطبختها له..

الأم مرة ثانية:

ـ في الحيّ كله لا تطبخ امرأة بمثل جودة طبخها، هريستها مثل الشيكولاته، مرقتها ولو كانت بالخضار فكأنها باللحم الفاخر، عصيدتها تلحسين الصحن بعد إنهائها، والله لولا الحياء لطلبت منها أن ترسل لي كل يوم من طبخها اللذيذ.

قالت حصّة في استرسال:

ـ أنا أهملتُ زوجي؟ عشرات الدعوات لحفلات الخطوبة والزواج وعيد الميلاد أرميها في الزبالة ولا أُبيّتها، أسواق جديدة ومحلات عديدة افتتحت أبوابها حاملةً كلّ جديد ومسلّ لم تطأها قدمي. حتى أمي، أمي الحبيبة هذه تمرض أحياناً فلا أتمكّن من زيارتها والاطمئنان على صحّتها، قريباتي وصديقاتي لا أزورهنّ بانتظام ولا أردّ زياراتهنّ كما تقتضي العادة ويطلب الأدب. كل ذلك لكي أبقى في البيت لخدمته والاهتمام بشؤونه.

الأم مرة ثالثة:

ـ صحيح، والله العظيم صحيح، لقد نسيت النساء أن عندي بنتاً لبقة وجميلة كالقمر. لقد دفنها المجرم وهي حيّة تُرزق، أهال عليها التراب وَحَجَبَها عن الناس.

تابعت حصّة:

ـ إذا مرض أو أصيب بحمّى، لا يغمض لي جفن، أُعلن حالة الطوارئ في البيتُ، أقفل جميعَ النوافذ حتى لا تتسرّب إليه لفحات الهواء البارد، أقف كالحارسة عند سريره مستعدةً لتلبية كل طلباته، ولا يكاد ينطقَ أنه يريد الدواء حتى أركض كالمجنونة لكي أجلبه له من الثلاّجة.

الأمّ مرة رابعة:

ـ المسكينة! وهو عندما يمرض يصبح مثل الكلب الأجرب الذي ابتلّ شعره، يئنّ ويتشكّى من أبسط وأتفه الأسباب.

تنهّدت حصّة وقالت:

ـ أنا أهملتُ زوجي؟ حتى شعر شاربيه ولحيته أشذّبه له، حتى أظافر يديه ورجليه أقصّها له إذا طالت.

دخلت ممرضة مصرية لكي تقيس الحرارة والضغط، وعندما شاهدتْ حالة الهياج التي تنتاب حصّة قالت محذّرة:

ـ أنت ما زلت متعبة وضعيفة من تأثير الولادة، تحتاجين لراحة تامة وإلا تعرضت لمضاعفات سيئة.

اغتصبتْ حصّة ابتسامةً ضعيفة وقالت:

ـ لا عليك، هذه مشكلة عائلية صغيرة.

عندما خرجت الممرضة، قالت الأخت الكبرى:

ـ إنها مشكلة كبيرة وليست صغيرة، من الواضح أن خالداً لا يريدك.

قالت الأم بغضب:

ـ ليخلد في النار. ومن قال إنها تريده؟ هذا الوغد قربُهُ حزن، وفراقُهُ عيد.

تدخّل جمال وقال:

ـ يا أمي، هدّئي أعصابك، الأمور ليست بهذا السوء.

تعاطفت حصّة مع كلام والدتها وقالت:

ـ لا أريده، لا أطيقه، ليذهب إلى جهنّم!

خنقتها العبرة فبكت، احتضنتها أمّها وقالت:

ـ السافل، من يظنّ نفسه؟ لقد تشرّف من الزواج من ابنتي، هل نسي أن جده كان بحّاراً عند جدك، وجدّته كانت تبيع السمك في السوق وقد لبست الخرق البالية التي تزكم الأنوف برائحتها النتنة؟

قال جمال متضايقاً من تلك الملاحظة:

ـ يا أمي لا داعي لهذا الكلام.

قالت أمّه بغضب:

ـ لا بد أن تُكشف الحقائق، يجب أن يَعْرف مَنْ هو ومن نحن.

دخلت الممرضة الهندية وهي تدفع العربة التي وضع فيها

الطفل بلفافته الزرقاء، وضعته بالجـ ـب الأيمن من السرير، تحلّقت عليه الأم والجدة والخالة، وانهلن عليه بقبلاتهن وتعليقاتهن: «فديته... ما أحلاه... حصّنتك بالله... آية الكرسي... المعوذات... حبيبي... الغالي... عيوني... غناتي... ما أجمل عيونه... ما أروع أنفه... شعره مثل الحرير... كتكوتي... كشوكوشي... شكوني... ما أعذبه مثل القطة البيضاء الصغيرة...».

قال جمال:

ـ إنه يشبه والده.

احتجّت حصة:

ـ لا، إنه يشبهك، المثل يقول: الولد يطلع على خاله.

قالت أختها:

ـ إنه لا يشبه والده ولا يشبه خاله، إنه أجمل من كليهما، فَدَيته ما أجمله.

قالت الأم باستياء:

ـ أين والده المنحطّ؟ هل يترك أحد هذه الهبة السماوية العظيمة؟

فجّرت الأخت قنبلتها فقالت:

ـ لا بد أنه معها.

تساءلت الأم:

ـ من هي؟

قالت الأخت بيقين ثابت:

ـ قريبته من أبو ظبي التي كان قد خطبها قبل زواجه من حصّة.

قال جمال:

ـ ولكن عائلتها رفضته وانتهى كل شيء.

قالت الأخت وهي تؤكّد المعلومة التي ذكرتها:

ـ ما زالت لم تتزوّج حتى الآن وقد توفي والدها مؤخراً وورثت أموالاً طائلة وعمارة كبيرة، وزيارات خالد المتكرّرة توضّح وتكشف كل شيء.

قالت حصّة بغضب:

ـ ليذهب إليها، لا أريده، لا أريده!

بكت بنشيج مؤلم، قال جمال:

ـ هوّني عليك يا أختي، لا تبكي، كلّنا نحزن عندما تبكين.

قالت وهي تحاول مغالبة دموعها:

ـ أنا آسفة... لا أقدر على منع نفسي من البكاء.. أنا تعبانة... بعد الوضع لم أسترح... طيلة الليلة الماضية لم أنم... جارتي في الحجرة المجاورة كانت تصرخ طيلة الليل... زارها عدة أطباء ولم تتوقّف عن الصراخ... حجرتي بالقرب من مكتب الممرضات... أزعجنني بثرثرتهنّ حتى طلوع الفجر... قلبي يؤلمني بشدة... لا أحتمل الألم... سوف أموت... سوف أموت.

احتضنتها أمها وأمطرتها بالقبلات وقالت بحنان فائق:

ـ بسم الله عليك، إنْ شاء الله يموت عدوك يا حبيبتي، إنْ شاء الله يموت الذي يكرهك يا نور عيني..

واصلت حصّة بكاءها، وقالت مخاطبة جمالاً وقد اضطرب كلامها:

ـ لا أريد خالداً... لو جاء لزيارتي لَسَبَبْتُه وَأهَنْتُه... سوف أطرده مثل الكلب... إنه لا يستأهل هذا الولد... هذا الجوهرة... إنه إنسان حقير... سافل... منحطّ... أنت أخي الحبيب... ستساعدني في تربية ولدي... ستشتري له الحلوى وتأخذه إلى محلات الألعاب... ستكون وليّ أمره في المدرسة... ستشرف على تعليمه... ستأخذه إلى الطبيب إذا مرض... يا إلهي... ماذا أقول... إنّه ابني... أنا سوف أربّيه بنفسي... لن أحتاج لأحد.. ولن أجعله يحتاج إلى أحد... سأنذر كل حياتي له...

توقّفت عن الكلام ووضعت وجهها في صدر أمها واستسلمت للعبرات الغزار.

نظر جمال إلى أخته الكبرى التي كانت تأكل الكيك الذي أحضرته الممرّضة لحصّة فلم تلمسه، وقال لها بغضب:

ـ هل رأيت نتيجة عملك؟

مسحت فمها وقالت ببلاهة:

ـ أنا لم أقل شيئاً.

ـ لم تقولي شيئاً، وتلك القصة المختلقة عن خطيبة خالد السابقة؟

ـ إنها حقائق، لماذا تريد أن تتجاهلها، شهر كامل لا يزور زوجته ولا يأتي ليحضر ولادتها ويهينها في التلفون، صديقاتي من أبو ظبي كَلَّمْنني عن كل علاقاته.

ـ هذه ثرثرة سخيفة لنساء فارغات.

ـ لا تغلط عليّ، أنا أكبر منك.

أراد أن يردّ عليها بكلام حادّ، ولكنّ خالداً دخل في تلك اللحظة. كانت في يده وردة حمراء كبيرة، دهش الجميع.

مسحتْ حصّة دموعها بسرعة، أرادت إصلاح شعرها وثوبها، وقالت في اضطراب:

ـ خالد، لقد أتيت!!

قال وهو يبتسم:

ـ نعم يا حبيبتي، لقد كنت أسوق بسرعة كبيرة حتى إنّ

الرادار أمسكني ثلاث مرات في دبي وأبو ظبي. هذه ستكون المرات القليلة التي سأدفع فيها غرامة الرادار وأنا سعيد. هل أنت بخير؟

أشرق وجهها بابتسامة عريضة أزالت جانباً من شحوبه، وقالت:

ـ أنا بخير يا حبيبي، لقد اشتقتُ إليك كثيراً.

قبّلها على خديها وجبهتها، وضع الوردة الحمراء في الكأس التي على طاولة السرير وقال:

ـ أين هو؟

قالت وهي تشير إلى طفلها بلفافته الزرقاء:

ـ أليس جميلاً؟... إنه يشبهك، حبيبي. سألوني إذا أردت أن يختنوه اليوم أو أنتظر حتى يكبر. لم أجاوبهم، أردت أن أستشيرك... ماذا تقول؟

اندمج الزوجان في حديث حنون هامس. أرادت الأم أن تقول شيئاً، ولكن «جمال» سحبها وأخته، وخرجوا جميعاً من الحجرة الصغيرة وأغلقوا الباب وراءهم.

قصتان

محمد حسن الحربي*

يسر كثيراً عند سماعه الناس

يسرّ كثيراً عند سماعه الناس يقولون إنه الرجل الذي جمع المجدَ من أطرافه: مالاً وزوجةً جميلة ووجاهةً اجتماعية نافذة. ما يريده يناله بإشارة، دائم المشغولية؛ وزوجته تأخذ تفكيره: ما إن يخرج من المنزل حتى يترك لها مبلغاً من المال على طاولة الطعام للتسوّق اليومي، وما إن يدخله حتى يفاجئها بخاتم من السوليتير أو عقدٍ من اللؤلؤ، أو ساعةٍ مطعّمة بأحجار نادرة، أو بماسةٍ سداسيّة برّاقة.

في كل صيف لها جزء بارد من الكرة الأرضية تنتقل إليه: تحطّ أينما تشاء، وتطير الى ما يطيب لها وتهواه. في كل شتاء لها جزء دافئ من الكرة الأرضية تنتقل إليه: تحطّ في شمس فاترة، وتطير الى هواء منعش. لها مَنْ يخدم يديها، ورجليها، ووجهها، وعندها مَنْ يمتهن إدخال السرور الى نفسها فتسعد وتتثاءب فتنام، وحولها مَنْ يتسابق الى إيقاظها بأجمل الألحان عند الضحى.

دَيْدَنُهُ التفنّن بمفاجأتها بكل جديد وممتع: مرةً يغزل لها من خيوط الضوء أغنيةً، ومرةً يفاجئها بطيب يرتعش لنفحاته فضاءُ المكان، ومرة يُسمعها أنغامَ الطيور الولهى، ومرةً رابعة يُخرج لها القمر من الماء، ويُنزل لها من السماء مدناً حلميّة فيها جوارٍ يمتهنّ الوصافة وأشياءَ القلب الصغيرة. لديه أمرُ سعادتها من الأمور الكبيرة، فهو عاشق مدنف لا يرى سوى نفسه ملكاً على قلبها ويخشى الحسد.

عاد الى مخدعه فجأة، فشعر برائحة عرق، واشتمّ ارتباكها في العينين، وقبل أن يصل خنجره الى قلبها العطش، قبّلتْ يده بشفتين مرتعشتين، قائلة: «هذه هداياك، احتجتك في هذه الليلة الباردة منذ عشرين سنة».

اضطرب الرجل وهو يرفع جثة القطة

اضطرب الرجل وهو يرفع جثّة القطّة المدهوسة المدمّاة من الشارع. دفنها في بقعة رمليّة بالقرب من منزله، ولم يتناول يومها طعام الغداء مع عائلته كالمعتاد.

فعل الشيء نفسه يوم مات العصفور داخل قفصه بجانب باب المجلس، بسبب ظرف غامض. يومها أخذه الى الطبيب طالباً تشريحَ جثته للتأكد من سبب موته المحزن. وفعل الشيء نفسه يوم سمع من الأطفال في الحيّ بطائر «اللوهة» المختنق تحت أحد القوارب في الميناء القريب من مكان سكناه، يومها حمل جثّة الطائر الرطبة الى رئيس لجنة حماية البيئة في المدينة، الذي أقنعه بأنه مات بسبب هرَمه وضعف جسمه لا بسبب التلوّث أو بفعل فاعل. أصرّ في المقابلة على قبول ما في جيبه من نقود على سبيل التبرّع، وسجّل اسمه كمتطوّع دائم وعضو في لجنة حماية البيئة.

ومن رقّته كان يبكي أثناء نومه في الليل، ولوداعته كان أطفال الحيّ يتحلّقون حوله، يشكون اليه سوء معاملة آبائهم وأمهاتهم لهم، فكان يزورهم في بيوتهم ليقرّعهم بشدّة، وكانوا يتقبّلون منه هذا السلوك الإنساني بابتسامة، ويعتذرون له بصدق حميمي.

زوجة سعيد كانت الوحيدة التي تبدي عدم محبّتها له، وهو ما جعل الناس يستغربون ذلك منها، ويتهمونها بعدم الإخلاص وقسوة القلب مع رجل ترتبك قدماه في مسيره خشية أن يطأ نملة أو زاحفة تسعى.

يبدأ سعيد (أبو حمد) عمله بعد منتصف الليل وينتهي في ساعات الفجر الأولى، ويعود الى منزله منهكاً.

كانت مهمته زيارة البيوت الآمنة، يسحب شبابها الى غرف التعذيب حتى الموت!

---

* ـ صحفي، ومن رواد كتّاب القصة في الإمارات.